# الفصل السابع

## مشكلة تقلص وظائف الأسرة المعاصرة

١ – هل تقلص الوظائف نوع من التفكك الأسرى ؟

٢ – تقلص الوظائف والإنتاجية الاقتصادية .

٣ – تقلص الوظائف : ماله وما عليه .

٤ – الوظيفة الأساسية للأسرة الحديثة : « الميلاد الثانى » .

٥ – التنشئة الاجتماعية .

٦ – الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة .

٧ – ترتيب الاخوة من حيث المكانة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

# مشكلة تقلص وظائف الأسرة المعاصرة

## ١ – هل تقلص الوظائف نوع من التفكك الأسرى ؟

تقوم الأسرة بمجموعة من الوظائف الجوهرية وهى كلها وظائف اجتماعية بمعنى أن هناك تداخلا وتفاعلا مع أبنية المجتمع . ويقسم البعض هذه الوظائف الى مجموعتين متميزتين ، الأولى هى الوظائف الفيزيقية ( أو المادية ) وهى على سبيل المثال : التكاثر ، والوظيفة الاقتصادية ، ووظيفة الحماية . . . إلخ . والمجموعة الثانية هى الوظائف الثقافية والعاطفية والاجتماعية ، مثل : تكوين الفرد عن طريق الثقافة والتربية والتنشئة الاجتماعية ، وازدهار ورفاهية كل عضو من أعضاء الأسرة .

وكانت الأسرة الممتدة فيما مضى ، وخاصة فى النظام القائم على الاقتصاد الريفى ، تقوم بمجموعة الوظائف الفيزيقية . وكذلك وظائف التكوين والتنشئة الاجتماعية ، وأصبح هناك من الآن فصاعدا أطراف أخرى تتدخل لتمارس هذه الوظائف المختلفة بدلا من الأسرة ، أو بالتعاون معها .

وتحولت الوظيفة الاقتصادية من وظيفة إنتاج إلى وظيفة استهلاك ، حتى أن المنتجات الخام فى البيئات الريفية لم يعد يتم تحويلها فى المنزل إلى سلع صالحة للاستعمال ، فقد أصبحت الصناعة تتولى هذه المهمة بشكل مطرد . ونلمس بوضوح أن الاتجاه العام لتطور عمليات تجهيز وإعداد المنتجات الغذائية والملابس والمعدات المنزلية يسير نحو جعل تلك المنتجات جاهزة للاستهلاك مباشرة . ويتحدد شكل المنتجات المعروضة للاستهلاك عن طريق دراسات السوق وعن طريق البحوث الاجتماعية التى تحاول تحقيق الاستجابة لرغبات الجمهور . ومن هذه الزاوية يمكن القول بوضوح بأن تأثير الأسرة على توجيه الصناعة أصبح تأثيرا كبيرا .

أما الوظيفة التى تحتكرها الأسرة دون أى مؤسسة أو نظام آخر فهى وظيفة الإنجاب . فالنسبة الغالبة من المواليد يولدون داخل أسر ، ولا تزيد نسبة المواليد خارج نطاق الأسرة ( أى من

علاقات جنسية غير مشروعة ) عن ٦٪ فى المتوسط فى المجتمعات الغربية ولكنها تقل عن ذلك كثيرا فى المجتمعات التقليدية .

ولكن حتى فى هذا المجال الذى يبدو لأول وهلة فرديا تماما نجد أن هناك طرفا ثالثا يملك اليوم تأثيرا حاسما ممثلا فى الدولة ، فالدولة تستطيع عن طريق سياستها الأسرية ( والسكانية ) وحسب احتياجاتها واتجاهات سياستها العامة أن تشجع المواليد وأن تساعد الأسرة الكبيرة العدد ( وذلك من خلال تقديم إعانات عائلية ، وإعانات للسكن ، ومنح تخفيضات ضريبية ، وتخفيضات فى وسائل المواصلات ، وميداليات للأسر إلخ ) . أو على العكس من ذلك تستطيع الدولة أن تضع برامج لتخفيض عدد المواليد ( عن طريق تشجيع تحديد النسل ، واباحة الاجهاض ، وحملات التعقيم . . الخ ) وذلك إذا كانت زيادة أعداد السكان تحتم ذلك فى بعض البلاد النامية مثلا .

أما وظيفة الحماية ( كالدفاع عن الحريات ، والحماية الجسدية ، والوظيفة الوقائية والصحية ) والتى تتم ممارستها بالتضامن بين الجماعة الأسرية الممتدة ، فإن هناك مؤسسات متعددة تقوم بها ويتيسر للجميع الاستفادة من التقدم العلمى وخاصة فى المجال الصحى . وحتى فى مجال العناية التى تتم فى المنزل ، فإن الدولة تتدخل لكى تشجعها وتيسرها وذلك عن طريق وضع أنظمة للتأمينات الاجتماعية ، فتتحمل الجزء الأكبر من مصاريف المرض أو الوقاية الصحية ، وبحل تضامن الأمة – لصالح الأسرة – محل التضامن القرابى الذى كان موجودا فى الماضى ، وذلك عن طريق القيام باعادة وزيادة متوسط العمر ، وتحسين مقاييس النمو الفيزيقى ( الوزن وطول القامة ) إنما تدل على فعالية هذه الاجراءات جميعا .

وقد أصبحت وظيفة التعليم هى الأخرى وظيفة تمارسها الدولة .

فقد جعلتها اجبارية بالنسبة للجميع . وهى تنشئ المبانى المدرسية وتعد المعلمين وتعينهم ، وتقدم المنح والمكافآت الدراسية لكى تخفف من آثار عدم المساواة فى الدخول وتحقق تكافؤ الفرص فى التعليم على قدر الإمكان . ولكن الأسرة لا يمكن أنها تلقى بعبئها كاملا على الدولة فى هذه الوظيفة فقد اتضح من الخبرة ضرورة قيام التعاون الوثيق بين الآباء والمؤسسات التعليمية سواء فى وضع البرامج والمناهج وفى التوجيه أو فى علاج المشكلات النفسية ومن هنا تتضح لأهمية المتزايدة لجمعيات الآباء التى تقوم فى المدارس لتحقيق التعاون بين هيئة المعلمين وبين آباء التلاميذ .

ولكن الأسرة تمثل بيئة لا تعوض بالنسبة للتربية بمعناها الدقيق ، ولتكييف الطفل ليصبح عضوا فعالا فى المجتمع ، وتنمية شخصيته وقدراته الخاصة . وقد تكفلت بتوضيح تلك الحقيقة

الهامة عشرات الدراسات الحديثة فى علم نفس الطفل[١] . وهكذا نرى الأسرة قد أصبحت أخيرا فى شكلها الحديث المكان الذى يجد فيه الرجل والمرأة – بعد تحررهما من عوامل القهر الاجتماعى – ملاذا من وحدة المجتمع . ويتجهان عن طريق الاتصال والتعاون نحو الرخاء بمفهومه الحديث .[٢] .

ويشير التراث العلمى فى الاجتماع العائلى إلى تلك الظاهرة باسم « تقلص وظائف الأسرة » . وواضح من ظاهرة التسمية أن المؤلفين الكلاسيكيين الذين سجلوا هذه الظاهرة قد اتخذوا منها موقفا سلبيا . أو على الأقل اعتبروا فيها تهديدا يمثل خطورة على مكانة الأسرة وعلى مستقبلها . إذ أننا يمكن أن نجد من يخلط بسهولة بين « تقلص الوظائف » « وتقلص الأسرة » . ومن هنا نطرح على أنفسنا نفس السؤال : – هل يمكن القول بأن تقلص وظائف الأسرة فى المجتمع المعاصر يمكن أن يؤدى إلى نوع من التفكك الأسرى[٣] .

إذا جاز القول بأن التخصص وتقسيم العمل يؤدى إلى تفكك المجتمع الحديث ، فأنه يمكن القول بنفس القدر بأن تقلص وظائف الأسرة يمكن أن يؤدى إلى تفكك الأسرة ولكننا رأينا كيف أن التخصص وتقسيم العمل فى المجتمع قد أدى إلى تدعيم التضامن الاجتماعى على نحو لم يشهده المجتمع الإنسانى من قبل ، كذلك نقول أن تقلص وظائف الأسرة قد حول أعضاءها إلى مجموعة من الشخصيات المستقلة التى لا سبيل أمامها للوجود والحياة داخل إطار واحد سوى تكوين شبكة

---

( ١ ) تناولت أعمال سبيتز Spitz فى نيويورك وبولبى Bowlby فى لندن والزابيث رودينسكو E. Roudinesco فى باريس تطبيق للمفاهيم المتخصصة البحتة للتربية والتى تسمى « تربية الأطفال بالجملة » كأطفال دور التربية والاصلاحيات والملاجئ وغيرها من مؤسسات رعاية الأطفال فى خارج السياق الأسرى . واتضح من تلك الدراسات أن الأطفال الذين تقوم بتربيتهم مربيات متخصصات وفقا لقواعد تربوية رشيدة ، ولكن بدون حب الأم ورعايتها المباشرة ينمون أقل من الناحية الفيزيقية ( تأخر فى الوزن ، وتأخر فى النمو كما يختلف نموهم الفكرى والخلقى والاجتماعى . اذ أن تعرضهم للمرض والوفاة يكون أكبر منه لدى الأطفال الذين يتمتعون بوجود الأم . الأسرة وحدها هى التى يمكن أن تلبى احتياجات الطفل ، بأن تقدم له بيئة عاطفية يكون الحنان فيها « فيتامينا نفسيا حقيقيا للنمو » ، على حد تعبير جاك سابران J. Sabran وهى التى توفر للطفل بيئة محصنة تم فيها التجارب التدريجية بأخطار مخففة فهى تقدم المناخ الممتاز لعملية التنشئة الاجتماعية . كما أوضحت الملاحظات التى سجلها شيلدون وجلوك عن العلاقة بين جناح الأحداث وعدم الاستقرار فى الطفولة والمراهقة الأخطار التى تخلها الأسرة المفككة والدور المفيد الحاسم الذى يؤديه التجانس بين الآباء بالنسبة لأبنائهم . علياء شكرى فصل فى كتاب دراسة علم الاجتماع ، ص ص ٢٣٢ – ٢٥٤ ، وكذلك المراجع الواردة هناك والتى أشارت اليها فى المتن .

( ٢ ) اعتمدت فى العرض السابق على مقال سابران الذى سبقت الاشارة اليه ، والمنشور ترجمته فى كتاب دراسة علم الاجتماع . خاصة ص ص ٢٤٦ – ٢٤٨ .

( ٣ ) انظر مناقشة ريبيه كونيج لهذا الموضوع فى دراسته عن الأسرة .. « المنشورة فى :

Handbuch der empirischen Sozialforschung, op. cit, PP. 173-175.

جديدة من علاقات التآلف الحميمة التى تنهض على أساس من الاقتناع والعاطفة لم يكن له نظير فى الأسرة من قبل ، لأنه وليد ارادة مستقلة وليس وليد حاجات مادية أو اجتماعية ملحة . وسنعود إلى هذه النقطة فى كلامنا عن مزايا التقلص الوظيفى وعيوبه ولكننا نكتفى بأن نجيب عن السؤال السابق بتأكيد أن هذا التقلص لا يعنى بالضرورة حدوث نوع من التفكك الأسرى

**٢ – تقلص الوظائف والإنتاجية الاقتصادية :**

ونقول لأولئك الذين يأسفون لتقلص وظائف الأسرة . إذا كان هذا التقلص يمثل ظاهرة سلبية فكيف يفسرون هذا الارتفاع الهائل فى الإنتاجية الاقتصادية للمجتمعات التى حققت قدرا أكبر من هذا التقلص ، وهى أساسا المجتمعات الصناعية المتقدمة . ونكمل تلك الملاحظة بأخرى نلمسها بوضوح شديد ، وهى أن الاعتماد الكبير على معونة الأسرة ومساندتها للفرد فى كل نواحى حياته قد أدى – خاصة فى المجتمعات التقليدية (ككثير من البلاد النامية ) – إلى قتل أو تعويق المبادرة الفردية .

وتلك حقيقة مؤكدة لايستطيع أن ينكرها أحد أويشك فيها ، وتسمى تلك الظاهرة بالتطفل الأسرى Family Paraistism حيث يستغل الأعضاء الكسالى والعاجزون فى الأسرة التضامن الأسرى لتحقيق مصلحتهم والحفاظ على مكانتهم على حساب بقية الأعضاء النشطين . . فتحدث فى نهاية الأمر حالة من التساوى لا تفرق بين العضو النشيط والعضو الخامل من حيث عائد الجهد أو تقدير هذا الجهد .

ولا شك أن ظاهرة ، « التطفل الأسرى » تعد فى كتابات علم اجتماع التنمية من أخطر العوامل التى تعوق جهود التنمية فى العالم الثالث[٤] . ومن هنا كان حرص كبار المصلحين فى الصين ( منذ ص يات صن وحتى ماوتسى تونج ) على اضعاف كيان الأسرة الصينية الكبيرة القديمة لصالح عملية التنمية الاقتصادية ، وقد صاغت تلك الاتجاهات عديدا من الاجراءات والوسائل السياسية والتشريعية لتحقيق هذا الغرض[٥] .

---

( ٤ ) وقد أوضح محمد الجوهرى كيف تؤدى هذه الظاهرة إلى جعل السلوك الاقتصادى فى البلاد النامية جامدا فى طابعه العام ، بمعنى أن يقتصر النشاط الاقتصادى على تلبية احتياجات الشخص واحتياجات أقاربه الذين يقوم على اعالتهم ، وهم فى الغالب أعضاء فى نفس الجماعة المحلية . ولذلك يؤدى هذا الوضع المتميز الى نتيجة خطيرة ذات آثار بعيدة : اذ نجد الانسان فى تلك المجتمعات يستجيب لأى زيادة فى الدخل بخفض الجهد الاقتصادى المبذول ، انظر : د . محمد الجوهرى ، علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف . ١٩٧٨ . ص ص ٤٣ ومابعدها خاصة ص ٤٤ .

( ٥ ) انظر رينيه كونيج . الأسرة فى المجتمع المعاصر . مرجع سابق صفحة ٧٠ .

ورغم أهمية العمل فى اضعاف وتعويق جهود التنمية الاجتماعية الشاملة ، فإنه لم يلتفت إليه الباحثون الالتفات الواجب . وقد انتبهت إليه بشكل مكثف أغلب الحركات الثورية فى المجتمعات التى يسود فيها نظام الأسرة الممتدة . حيث حرصت تلك الحركات على الاستفادة من الطابع الفردى الذى أخذ يسيطر على الأسرة . وكذلك الاستفادة من كل نتائجه فى الانتفاع بجهود النساء والأطفال فى عمليات التنمية . . فكان تحرير أفراد الأسرة من سيطرة الكبير عبارة عن تعبئة كاملة لكل القوى العاملة لخدمة عمليات التنمية والتطوير الاقتصادى .

ولذلك يرى البعض أن المساواة فى الحقوق بين الرجل والمرأة أتاحت فرصا متكافئة لكلا الجنسين للعمل فى النشاط الاقتصادى المنتج . وقد حرص الاتحاد السوفيتى ، والمانيا الديمقراطية ( الشرقية ) والصين على السير فى هذا الاتجاه بمجندين أقصى طاقات الرجال والنساء ( بل والصبيان ) للعمل المنتج فى كافة قطاعات النشاط الاقتصادى والاجتماعى . ولقد مرت كل تلك المجتمعات وأمثالها فى بادئ أمرها بفترة « التعبئة القصوى » ، من أجل تجنيد كل أبناء المجتمع للعمل الاقتصادى المنتج . وقد جعل الحزب وجعلت الدولة ذلك الهدف هو واجبها الأول . بل تذهب بعض مراجع التنمية إلى القول بأن الهدف الأكبر للقانون الأسرى الصينى ( قانون الأحوال الشخصية ) منذ الخمسينيات وحتى الآن – هو خدمة التنمية الاقتصادية وتعقب كل مظاهر التطفل الأسرى بقصد القضاء عليه تماما[٦] .

**٣ – تقلص الوظائف : ماله وما عليه :**

لعله قد اتضح من كل الدراسات التقليدية والحديثة للأسرة أن المؤسسات المتخصصة الحديثة تستطيع أداء كل ( أو على الأقل أغلب ) . الوظائف التى كانت تؤديها الأسرة فى الماضى بنفس الكفاءة ، إن لم يكن بشكل أكفأ ومن هنا يصبح من المنطقى أن نتساءل هل بعد ذلك يمكن أن نعتبر تخلى الأسرة الحديثة عن بعض وظائفها تدهورا للأسرة ؟

لا شك أن هذه النتيجة الواضحة تؤكد لنا أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تعد تقلصا حقيقيا للأسرة ولا تدهورا لمكانتها . خاصة إذا أضفنا إلى هذا بروز الوظيفة الحقيقية للأسرة واتضاحها أكثر فأكثر مع الوقت وأعنى وظيفة بناء الشخصية الاجتماعية الثقافية للفرد . أى وظيفة التنشئة الاجتماعية وكذلك التربية العاطفية للفرد وتغذيته بالأحاسيس والمشاعر التى تكفل له مغالبة

---

( ٦ ) انظر المرجع السابق ، صفحة ١٥٥ ، وكذلك المراجع الواردة هناك .

التوترات ومواجهة الأزمات ، ولا توجد أى مؤسسة اجتماعية أخرى يمكن أن تؤدى هذه الوظيفة بمثل هذه الكفاءة أو حتى بكفاءة قريبة منها .

وهكذا توصل روبرت ماكيفر إلى هذه النتيجة الهامة التى يؤكد فيها بوضوح : « لما فقدت الأسرة وظيفة بعد أخرى عثرت فى النهاية على وظيفتها الحقيقية . فقد أصبحت رابطة أولية أصبح فيها الزوج والزوجة أبا وأما ، تربط بينهما رابطة بسيطة . تذكيها عاطفة خالصة نقية تبدأ فى حب الوالدين والأطفال . ولا يمكن أن تجد تلك العواطف تعبيرا حرا عنها الا فى ظل هذه الأسرة الموحدة . كلما نما المجتمع المحلى ، كلما اتجهت الأسرة إلى اتخاذ هذا الشكل الموحد »[٧] . وهكذا يحتم علينا أن نقوّم هذه الظاهرة تقييما جديدا فى ضوء هذه الاعتبارات والمفاهيم الحديثة . يضاف إلى هذا بعد آخر وهو أن كل التغيرات والتعديلات التى طرأت على ظروف الأسرة لم تمتد لا تصدق إلا على الفئات العليا المتميزة سياسيا واقتصاديا ، فهى أساسا التى كانت تعرف هذا النظام . أما الطبقات الدنيا فهى فى الغالب الأعم لم تعرف منذ الأزل سوى نظام الأسرة النووية . ومن الطبيعى أنه إذا كانت تلك الأسرة النووية الضعيفة لا تملك شيئا . فأنها لا يمكن بالتالى أن تفقد شيئا ، وهى لهذا ظلت بعيدة عن تيارات التغير العنيف . ولذلك فإن تقلص الوظائف لم يصب فى الحقيقة سوى الأسر الكبيرة . ومن هذا لا يمكن أن نعتبره قانونا عاما أبدا[٨] .

### ٤ – الوظيفة الأساسية للأسرة الحديثة ( الميلاد الثانى ) :

أوضحنا من قبل أن الوظيفة الحقيقية للأسرة تتمثل فى بناء وتكوين الشخصية الثقافية الاجتماعية للانسان فى إطار جماعة صغيرة تتميز علاوة على هذا بأن أفرادها تجمع بينهم مشاعر وأحاسيس شديدة الألفة والقوة . ولكى نفهم أثر تلك الجماعة حق فهمه يجب علينا أن نرجع إلى تراث الأنثروبولوجيا الثقافية الحديث وإلى المعارف الغزيرة التى كشف عنها هذا العلم الحديث . فهى توضح لنا بكل جلاء أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بعد مولده أكثر من ساعات قليلة دون مساعدة الغير . وذلك على خلاف أغلب الفقريات العليا ، التى تولد شبه « جاهزة » أو مستعدة للحياة معتمدة على نفسها دون مساعدة كبيرة من ذويها[٩] .

---

(٧) Robert M. Maciver, **The Elements of Social Science**, London; 1921, P. 162.

(٨) انظر مزيدا من التفاصيل عند كونيج . دراسات فى علم الاجتماع العائلى . مرجع سابق .

(٩) وقد قرر مالينوفسكى بوضوح أنه : « كلما ارتقى الحيوان فى مدارج التطور . كلما ازداد عجز الصغير المولود وازدادت حاجته إلى رعاية وتدريب طويل من والديه » . انظر :

Malinowski, B. «Marriage», in: **Encyclopaedia Britannica**, Chicago, London etc. 1962, P. 930.

ويدلنا ذلك على أن البقاء البيولوجى للإنسان يخضع فى جوهره للظروف والاعتبارات الاجتماعية التى تصيغه وتكيفه . وهنا تبدأ الوظيفة الحقيقية لجماعة الأسرة والتى لم يكن هناك أى مؤسسة أو نظام آخر يستطيع أن يحققها ولا حتى بشكل جزئى . خاصة فى فجر الإنسانية .

ولهذا السبب ينتهى عالم مثل رينيه كونيج إلى القول بأن الميلاد البيولوجى للفرد ليس هو الأمر الحاسم فى وجوده واستمراره وإنما العامل الحاسم هو « الميلاد الثانى » أى تكونه كشخصية اجتماعية ثقافية تنتمى إلى مجتمع بعينه وتدين بثقافة بذاتها . والأسرة هى صاحبة الفضل فى تحقيق هذا « الميلاد الثانى »[١٠] .

## ٥ – التنشئة الاجتماعية :

تتم عملية تكوين وإعداد الشخصية الإنسانية للحياة فى المجتمع على مرحلتين أساسيتين هما :

(ا) مرحلة التهيئة أو تنسيق القوى والاستعدادات البيولوجية والنفسية وغيرها بحيث يصبح الفرد مهيئًا لعملية التنشئة الاجتماعية[١١] .

(ب) عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

ومن العناصر الأساسية التى تقوم على تحقيقها مرحلة التهيئة للتنشئة الاجتماعية تنمية القدرات الأساسية – التى تكون فى حالة كمون أو قصور عند الولادة – وكذلك بذر البذور الأولى لثقة الإنسان فى نفسه وتكوين ايقاعات الحياة الأساسية التى يختلف شكلها اختلافا بعيدا من ثقافة لأخرى (كالجوع ، والعمل ، والاسترخاء . والنوم والعطش ، والأمن الجسمى والنفسى . . إلخ ) . وكذلك تدريب الفرد على النظافة بمفهومها الواسع . وتعد العملية الأخيرة من أصعب عمليات التهيئة لما تنطوى عليه من تنظم عمليات اخراج البول والبراز ، وتضطلع باللدور الأكبر ،

---

(١٠) الق رينيه كونيج الضوء من مختلف الزوايا على ذلك المفهوم فى كل مؤلف من مؤلفاته التى اشرنا إليها مرارا فى هوامش هذا الكتاب . خاصة المؤلفات الحديثة التى ظهرت منذ أوائل السبعينات

(١١) صاحب هذا المفهوم ، واليه يرجع الفضل فى التمييز بين هاتين المرحلتين على النحو الذى حددناه هنا هو ديتر كلاسيتر ، انظر مؤلفه الرئيسى :

Dieter Claessens, **Familie und Wertsystem**, 2nd edition, Berlin, 1967.

ديتر كلاسيتر ، الأسرة ونسق القيم ، برلين ، ١٩٦٧ .

وربما الوحيد – فى انجاز مرحلة التهيئة هذه والإشراف عليها الأم .[١٢] .

وتمثل المرحلة الثانية صلب عملية التنشئة الاجتماعية الحقيقية والتى تعد ايذانا بدخول الفرد عالم العلاقات الاجتماعية المنظمة . وهنا يبدو بأقصى درجة من الوضوح مدى ضخامة وتنوع تأثير الأسرة على الفرد . ويمكن أن نلخص هذه العملية بقولنا : أن أعماق طباع الفرد وشخصيته تتكون من خلال هذه المرحلة فى الفترة من السنة الأولى حتى السنة الرابعة من العمر ، وذلك فى نطاق الأسرة الضيق ، أى فى مجال العلاقات بين الطفل ووالديه واخوته وأقاربه المقربين الذين يشاركون الأسرة معيشتها داخل نفس البيت .

ولا يصح أن نفسر ذلك الحكم العام تفسيرا خاطئا بأن نذهب فى تأويله إلى الاعتقاد بأن المراحل التالية من حياة الفرد لا تضيف إلى شخصيته وإلى طباعه شيئا حاسما ، بل العكس هو الصحيح : فكل خطوة يخطوها الصغير خارج نطاق الأسرة الصغيرة تفتح أمامه آفاقًا جديدة للحياة ، وتدفعه إلى عمليات جديدة مستمرة للتنشئة الاجتماعية وإعادة التنشئة . فالتعلم واكتساب خبرات جديدة لا يتوقف حتى مراحل الشيخوخة المتأخرة ، ولكنه يظل صحيحا مع تأكيدنا أن أيا من تلك الخبرات ، أو عمليات التنشئة التى يمر الفرد بها يمكن أن يصيبه بنفس العمق الذى أصابته به خبرات الطفولة الأولى التى اكتسبها داخل دائرة الأسرة الصغيرة فى سنوات العمر الأولى .

وقد ساهم فرع علم النفس الاجتماعى المختص بالأسرة فى اثراء معلوماتنا عن تطور عملية التنشئة الاجتماعية والمعالم المختلفة لمراحلها وأطوارها المتنوعة ، كما شارك فى القاء الضوء على هذا

---

(١٢) وقد تمت أهم البحوث فى هذا الموضوع منذ الثلاثينيات فى الولايات المتحدة تحت اشراف الأنثروبولوجى الشهير رالف ليتون ، وبتأثير من بحوثه وتوجيهاته . وقد تحققت الاضافة الكبرى فى هذا المجال فى نطاق الأنثروبولوجيا الثقافية . ونذكر من أشهر الأسماء فى هذا المجال :

كلايد كلاكهون ، وهنرى مارى ، ودافيد شنيدر وغيرهم انظر :

— Clyde Kluckhohn, Henry A. Murray andDavid M. Schneider. (eds.), **Personality in Nature, Society and Culture,** 2nd edition, New York, 1953.

— Abraham Kardiner, **The Individual and His Society,** New York, 1939.

— A. Kardiner, R. Linton, C. du Bois and J. West, **The Psychological Frontiers of Society,** New York, 1945.

— Douglas G. Haring (ed.) **Personal Character and Cultural Milieu,** Syracuse, 1949.

— Hans Christoffel, **Trieb und Kultur,** Basel, 1944.

— R. Koenig und Axel Schmalfuss, (ed.) **Kulturanthropologie,** Dusseldorf, 1972.

ولا ننسى أن نضيف إلى هذه القائمة المؤلفات الهامة التى نشرتها روث بندكت ومرجيت ميد ، والتى حوت هى الأخرى اسهامات هامة حول الموضوع ، وقد سلفت الاشارة إلى بعضها فى حواشى هذا الكتاب .

الموضوع دراسات التحليل النفسى فى العقود الأخيرة . وقدمت إضافات غنية إلى معلوماتنا عن تطور عملية التنشئة الاجتماعية[١٣] .

## ٦ – الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة :

الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة فى أساسها دراسة نفسية لإحدى الجماعات الصغيرة الهامة وهنا تبدو السمة المميزة لتلك الجماعة الصغيرة فى أن الرابطة التى تجمع بين أفرادها – علاوة على صور التفاعل الأخرى – عبارة عن رابطة قوية من الحب . وأن بعض أفرادها ( وهم الأطفال ) قد جاءوا من نسل أفراد آخرين فى تلك الجماعة ( وهم الوالدان ) . ولذلك يمكن القول دون مغالاة أن العلاقات الأساسية داخل الأسرة تتم فى الحقيقة على المستوى العاطفى أساسا . فالطفل يكتسب الاحساس بالأمان إزاء نفسه وازاء العالم وازاء الأطفال والكبار المحيطين به من خلال إحساسه بالانتماء المأمون إلى جماعة صغيرة تخلع عليه هذا الإحساس بالأمن فى صورته المباشرة .

ويمكن القول بأن احتياج الطفل إلى الأمن من الضخامة ، والشدة بحيث أنه يؤدى إلى خلق نوع من الاحساس السلبى بالملكية . فهم يشعرون أنهم بمثابة ملكية خاصة لبعض الكبار المحيطين بهم ، والذين تربطهم بهم طائفة من العلاقات الخاصة المتميزة فى طبيعتها ويلعب هذا الأمن دورا هاما فى التأثير على استقرار وتوازن نمو الشخصية الفردية ، ولكن شرطه الأساسى – كما نعلم – أن يلقى قبولا من الوالدين .

وقد اهتم التحليل النفسى اهتماما خاصا بدراسة موضوع ارتباط الأطفال بالأب والأم اللذين يختلف دورهما عن بعضهما اختلافا كاملا .

---

(١٣) شهدت العقود الأخيرة زيادة هائلة فى دراسات علم النفس الاجتماعى المتصلة بالأسرة . ونشير فيما يلى إلى بعض الأعمال البيليوجرافية وكتب المدخل العامة فى الموضوع ، والتى تحوى بدورها اشارات إلى مئات من المؤلفات ، انظر

— Edward Zigler and Irvin L. Child, «Socialization» in: Gardner Lindzey and Elliot Aronson (eds.), **The Handbook of Social Psychology,** Vol. III 2nd edition, Reading, Mass, 1969. (PP. 450 - 589).

— John A. Clausen, (ed.), **Socialization and Society,** Boston, 1968.

— David A. Goslin, (ed.) **Handbook of Socialization: Theory and Research,** Chicago, 1969.

— Elton B. McNeil, **Human Socialization,** Belmont, Calif., 1969.

— Roland A. Hoppe, G. Alexander Milton and Edward Simmel (eds.) **Early Experiences and the Processes of Socialization,** New Yorkk and London, 1970.

— Walter R. Heinz, «Sozialisationforschung auf der Suche nach Theorie», in: **Kolner Zeitschrift fur Soziologie und** Sozialpsychologie, Nr. 26, 1974.

— Wilfried Gottschalch et.al, **Sozialisationforschung,** Frankfurt, 1971.

انظر مزيدا من التفاصيل حول هذا الموضوع عند كونيج ، الأسرة فى المجتمع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٥ – ١٥٦ ج .

فالأب يكون تركيزه الأساسى على الأدوار « العملية » ، بينما تركز الأم على الأدوار « العاطفية » والحقيقة – من وجهة نظر التحليل السوسيولوجى لهذه القضية – أن لكل طفل والدين ، يمثل كل منهما بالنسبة له نصف المجتمع ، الأم عن الاناث والأب عن الذكور[١٤] . ولكننا نجد فى الواقع العملى أن بعض الآباء يميلون إلى التقليل من خطورة دورهم أو تقديره أدنى ما هو جديد به من اهتمام فنراهم يقصدون فى أداء هذا الدور . ولهذا صاغ ميتشرليش Mischerlich تعبير ( الأب المحتجب ) The unseen father [١٥] .

ومن النتائج المترتبة على هذا التعلق الشديد من الأطفال بآبائهم أن يحدث فى بعض الأحيان ما اسماه العالم الألمانى الأستاذ رينيه كونيج المغالاة فى الترابط الأسرى » ، وتحدث هذه الظاهرة عندما تتأخر أو أحيانا تمنع عملية انفصال الأبناء من الأسرة وخروجهم منها بعد اكتمال نموهم وانتهاء تأهيلهم للعمل والمعيشة المستقلة . ويمكن أن تؤدى هذه الظاهرة فى بعض الأحيان إلى خلق اضطرابات نفسية عنيفة لدى الأبناء أو بعض أفراد الأسرة .[١٦] .

---

(١٤) انظر على وجه الخصوص :

—Morris Zelditch, Jr., «Role Differentiation in the Nuclear Family», in: T. Parsons and R. Bales (eds.) **Family, Socialization and Interaction Process**, Glencoe, III., 1955, PP. 307-351.

وقد أكدت البحوث الامبيريقية معظم الأفكار النظرية الواردة فى الدراسة السابقة ، وأيدتها بشكل بارز . انظر كذلك :

— Edward C. Devereux, Jr. Urie Bronfenbrenner and George C. Succi, «Patterns of Parent Behaviour in the United States of America and the Federal Republic of Germany, in: **International Social Science Journal**, 14, 1962-1963, PP. 488-506.

(١٥) ويمثل هذا التعبير عنوان مقال ( بالالمانية ) لهذا المؤلف ، انظر :

Mitscherlich, «Der unsichtbare Vater», in: **Kolner Zeitschologie**, Nr. 7, 1955, PP. 188-201.

كما نشر ميتشرليش مقالا آخر فى المجلة السابقة بعنوان « نحو مجتمع بلا آباء »

Auf dem Wage zur vaterlosen Gesellschaft

كذلك أشار ماريون ليفى ( الابن ) بحق الى أن أطفال اليوم ينشأون فى مجتمع اليوم ونتيجة لغياب دور الأب الفعال عن الاسرة فى مجتمع من النساء أساسا . انظر فى ذلك مقاله :

M. Levy, Jr., «Geschlecht Genevation und Modernisier ung» in: **Sonderheft 14 Kolner Zeitschrift fur Soziologie und Sozialpsychologie**

وانظر أخيرا :

Gunther Luschen und eugen Lupri (eds.) **soziologie der Familie**, Opladen, 1970, PP. 433-442.

(١٦) تناول رينيه كونيج هذه الظاهرة فى فصل مستقل بعنوان :

Uberorganisation der Familie

وذلك فى كتابه دراسات فى علم الاجتماع العائلى ، مرجع سابق .

انظر أيضا :

Horst—Eberhard Richter, **Eltern, Kind und Neurose**, Hambury, 1969

———, **Patient Familie**, Hamburg, 1972.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العملية تتم على المستوى الحيوانى من خلال سلوك وأفعال معينة تستهدف تحقيق هذا الغرض . انظر كونيج الأسرة فى المجتمع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص ١٠ – ١١ وكذلك المراجع الواردة هناك .

**٧ – ترتيب الإخوة من حيث المكانة :**

من الواضح أن الجماعة الأسرية لا تنمو إلا من خلال الزوجين والأطفال لذلك يثير موضوع ترتيب ولادة هؤلاء الأطفال والتفاوت بينهم ، فى المكانة عديدا من التساؤلات والقضايا والمشكلات ، ومنذ وقت طويل وموضوع مكانة الطفل يمثل موضوعا لأعداد لا تحصى من البحوث .

ويرتبط هذا الموضوع أول ما يرتبط بدخول الطفل فى جماعة الكبار داخل الأسرة ، ثم تثور مجموعة أخرى من المشكلات عند ولادة أطفال آخرين من نوع مخالف لنوع الأطفال الموجودين فعلا فى الأسرة (كأن يكون الأطفال الموجودين فعلا كلهم ذكور ثم تولد بنت أو العكس ) من هذا مثلا أنه يتحتم على الطفل الأول أن يشترك مع إخوته الأصغر منه فى عاطفة الوالدين ، التى كان يستأثر بها وحده فى الماضى قبل ميلاد هؤلاء الإخوة[١٧] .

ويرجع الفضل إلى عالم النفس التحليلى النمساوى إدلر Adler فى الإشارة لأول مرة إلى اختلاف مكانة الأبناء حسب تسلسلهم داخل الأسرة ، أى الطفل الأول والطفل الثانى والثالث . . الخ فالثالث هو الذى يحول الطفل الثانى إلى طفل متوسط . كذلك تختلف مكانة الطفل الأصغر عن موقعه فى سلسلة الأبناء ، فيأخذ مكانه الطفل الأول أو « الحيلة » فى حالة ما إذا ولد بعد فترة زمنية طويلة تفصله عن الأولاد . هنا يستحوذ على اهتمام الوالدين وسائر أفراد الأسرة وعلى الرعاية والتدليل الذى كان يحصل عليه الطفل « البكرى » . وذلك لمجرد فاصل زمنى كبير بينه وبين ميلاد آخر طفل . فيكون لدى الوالدين من الوقت والاهتمام والرغبة فى تدليله كما لو كان طفلهم الأول[١٨] .

وجوهر تلك المشكلة أن أبناء الأسرة يدخلون فى سباق للاستئثار – داخل نطاق الأسرة

---

(١٧) انظر على سبيل المثال المقال التالى :

Robert R. Sears, «The Ordinal Position in the Family as a Psychologi Variable», in: **American Sociological Review,** Nr, 15, 1950, PP. 397-401.

(١٨) يجد القارئ المعالجة الكلاسيكية لهذه المشكلات عند :

Alfred Adler, **Menschenkenntnis,** 5th edition, Zurich, 1947 (1st. edition 1925).

أما المعالجة الحديثة للموضوع فنجدها فى أحسن صورة عند تومان ، انظر :

— Walter Toman, **Familienkonstellation,** 2nd edition Munchen, 1974.

— W. Toman and Siegfried Preiser, **Familienkontellationen und ihre Storungen.** Ihre Wirkungen auf die Person, Ihre sozialen Beziehungen und die nachfolgende Generation, Stuttgart, 1973.

المحدودة – بعاطفة الوالدين . ولا يمكن أن يخلو هذا السباق من ظهور أزمات ومشكلات بين الأبناء فيما بينهم من ناحية . وبينهم وبين الوالدين من ناحية أخرى . لأن الاستئثار بعاطفة الوالدين يعنى فى نهاية الأمر الحصول على أسباب القوة ومقومات المكانة داخل الأسرة .

كما يرتبط بهذا الموضوع تقسيم الأبناء من حيث النوع ( ذكور وإناث ) خاصة فى المجتمعات العربية التى تخلع على الأبناء الذكور مكانة وأهمية تفوق الإناث ، وانعكاسات ذلك الوضع على علاقات القوة داخل الأسرة . وعلى نظام الميراث . . . إلخ . وتعالج كل تلك المشكلات اليوم تحت عنوان « التكتلات الأسرية Family Constellations على نحو ما تشير الدراسات المذكورة فى الحاشية الأخيرة ، خاصة مؤلفات تومان وبرايزر .

obeikandl.com